

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلّم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية ، لنين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء^(١) إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحي تزعج الغافلين ، وترجع بالباب الداهلين ، وتنبه المرؤسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين ، وبالجملّة تؤوب بهم إلى رشد يقم الإنسان على الطريق التي سنّها الله له « إنا هدينه السبيل^(٢) » ، ليلبغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجه إلى ما أعد في الدارين له ، ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف .

كانت دولتا العالم دولة^(٣) الفرس في الشرق ودولة الرومان في

(١) صرّ من التمثيل كما هو ظاهر ، وصرح به المؤلف في الدرس وكذلك قوله « وإلى نار » وقس على ذلك .

(٢) قال المؤلف في الدرس : المراد بالسبيل والطريق . فطرة الله التي فطر الناس عليها .

(٣) بيان للكلمة التي استعارها من التاريخ .

قال في الدرس : وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين فإنها كانت أيضاً ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان .

الغرب - فى تنازع وتجادل مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكه ، وقوى منهوكه ، وأموال هالكة ، وظلم من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفة والتفنن فى الملاذ بالغة حدّ ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقوّاد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شرّه هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدّ ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض (الإتاوات) حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديهم من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتياط لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمزت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعبين يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها . ولكن بقى لها من قوّة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، قهتدى العامة إلى السبيل ، ويثور الجمل الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام ويهبطوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب

ويعظم الرين ، ويخشق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يشره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معاشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغاير .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يُرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأوّل وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرعية معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهرين في شعوب متعددة ، وكان ذلك وياً عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نساؤها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا

قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن ، أو تنصلاً من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجمله فكانت رُبُط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدتها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمدّه من القوّة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

فى الليلة الثانية^(١) عشرة من ربيع الأول عام الفيل « ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة ، ولد يتيماً ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال^(٢) وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك ، وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جدّه عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب ، وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبيه قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين

(١) هذا هو المشهور بين الناس وهو أحد الأقوال وعند المحدثين إنه ولد فى الليلة التاسعة .

(٢) قبل خمس وقيل تسع .

أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والناس منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاذون^(١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخاطبه ، لا سيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده^(٢) ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره . فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله :

(١) استشهد المؤلف لهذا في الدرس بقصة اختلاف القائل في وضع الحجر الأسود يوم

بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق ، وما كان من إصلاحه بينهم بما أرضاهم جميعاً .

(٢) كأمية بن أبى الصلت وعمر بن نفيل .

« ووجدك ضالاً فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك هو الإفك المبين ، وإنما هي الحيرة تلمّ بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

وجد شيئاً من المال يسدّ حاجته ، « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن * زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنّث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشرّ الذي تولاه - إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي (١) ، وتجلّى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى ، في تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس

• كلما تقدم به السن .

(١) أى من غير شعور منه وهذا يدحض ما يقال بأنه كان يستشرق للنبوة ، قال تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » .

قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهلم معبدهم العام ، ويبتهم الحرام ، ومنتجع حبيجهم ، ومستوى العلية من آلتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قریش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته ، فقال : هي أن ترد إلى مائتي بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحفير ، وقت الخطب الخطير ! فأجابه : أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام ، وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قریش ، فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حالة من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع مُلكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة في الشعر ، لا براعة في الكتاب لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة ، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة . ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب " لإرشاد الأمم ، وكفالاته لهم كشف الغم ، بل وإحياء الرمم ؟ ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد

من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الإلهية تنصره في عمله ، وتمدّه في الانتهاء إلى أمّله ، قبل بلوغ أجله ، ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحي السماوي* قام لديه مقام القائد والجندي ، أرايت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلّي المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ودهرية وزندقة ؟

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم ، وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفي الثاوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان وردّ كل شيء في الوجود إليه ، أهاب بالطبعيين ليمدّوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنبهوا سرّ الوجود الذي قامت به ، صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم ، في هياكل أجسادهم .

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى هيين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحي ، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنيسة أصغر المعتقدين بهم^(١) وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل

* ما هو إلا الوعد السماوي .

(١) أي نسبة العبد إلى الرب ، والمخلوق العاجز إلى الخالق القادر ص ١٠٣٩ ج ١

تاريخ الأستاذ الإمام .

ذى نفس إنسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة .

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم* دون الأمل ، مال على قراء الكتب المساوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدت النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم .

ولفت** كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عابهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع ، والحاجة إلى أولئك

* وقطعتهم .

.. واستلفت كل إنسان .

المصطفين إنما هي * في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ،
وليس في الاعتقاد بوجوده ، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على
آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الإنسان بعد ذلك
يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين
متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيقاء
كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في
الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتروّده العامل هو الإخلاص لله
في العبادة ، والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول ولا قوة ، كل هذا
كان منه ، والناس أحياء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان
الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى
السعادة ، كل هذا والقوم حواله أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ،
لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عُقدت أهداب بصائر العامة
منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن
النظر في دعوى فقير أمي مثله . لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ،
والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف !

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل
ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالنزجر ، وينبههم للعبث ويحوطهم مع

ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته .

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز ؟ ما هذا العلم في تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب « الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ، ذلك خطاب الله القادر على كل شيء الذى وسع كل شيء » رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه . أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمى قام يدعو الكاتين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن يتابع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب إلى سداجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سنته البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخطط للسعادة طرقاتاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره

• حلف ما تحته خط من الطبعة الأولى :

الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبيّ صدّق
الأنبياء ، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير
الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوّة بالعمل فيما
أعدّت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ،
وجعل في قوّة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ،
وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من
حكيم حميد) .